الرجل الطواف

ويسألونك فى الثانية يا محمد عن ذى القرنين ،

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ (الكهف الآية ٨٣)

الأسكندر الأكبر المقْدُونى ، كانت له خصلتان من شعر خشن ملتفتان على جانبى جبهته ، وربما كان أغراه منظره ، فأعجب بهما ، وبَرَمهما حتى كانتا كحربتين فى جانبىْ رأسه ، وربما دهنهما بأدهنةٍ كما يفعل بعض الناس فى شواربهم ، فيبرمونها ويفتلونها حتى يقف عليها الصقر .

فأصبحت الخصلتان كالقرنين . ومن أجل هذا غلبت عليه التسمية فسُمِّى – ذا القرنين – .

* * *

وكان سؤال اليهود عنه ، عن الرجل الطواف . فيه تعميةٌ وإلغازٌ ، ليختبروا محمدًا فيما يخبر به فى هذه المسألة ، فجاء القرآن مُعْجِبًا فى إخباره ، مبينًا أوضح علامة فيه ، تدل على قوة نفسه وجسمه ، وشجاعته وعزمه ، والشجاعة والإقدام. أقوى أسلحة الحرب والغزو والطواف .

* * *

وهو رجل طيب صالح ، مكَّن الله له فى الأرض ، بالعقل الحكيم ، والصحة والقوة والغِنى والعدد الكبير ، والجيش الكثير ،والهيبة والرهبة ، فاجتمع له العلم والقوة وعُدة القتال .

وسار بجيوشه نحو الغرب ، حتى أطل على المحيط الأطلنطى ، وحتى لم يبق أمامه شبر من الأرض لم يستولِ عليه .

وماذا بعد غزو الأرض ؟ أيغزو الماء ؟ وماذا بعد غزو الماء ؟

ثم أين نهاية العالم ؟ لقد رأى قرص الشمس العظيم ،يصفرُّ ويتضاءل ثم يهوى ويسقط غارقًا فى الماء والطين .

وسرح اسكندر سرحة فى خيال وتأمل :

أهذه الشمس المدفئة ذات الضوء الوهَّاج ، تذوى فى عين ماءٍ ؟

أهكذا تنطفىء شعلة الحياة ، فنقع فى قبورنا ، كما تقع هذه الكرة ، فى عين الماء الحامية ؟

أهكذا يكون مصيرى فى عظمتى وقوتى ، مثلما صارت هذه الشمس فى عظمتها وقوتها ؟

أهكذا يذوى العالم ويذبل ، ويدخل بكل ما فيه فى جوف الفناءِ ، حتى لا يبقى إلا قدرة الله ووجه الله !

وأليس الله القادر على إخفاء الشمس فى غروبها ، وإحيائها وبعثها فى شروقها ؛ أليس قادرًا على بعث الخلق ، وما مثل الخلق إلا كنملٍ يدب على برتقالة ، وما البرتقالة إلا كرة الأرض ، وما الأرض إلا جزءٌ من مليون جزء من الشمس .

ألفُ دُليلٍ ودليلٌ على صحة عقيدة البعث ، ولكنَّ الناس لا يعقلون .

* * *

والتفت ذو القرنين فوجد قومًا همجا ، يعيشون بلا دين ولا خلق ، كما تعيش الوحوش هائمة على وجوهها : فلما دعاهم إلى الله ، لم يستجيبوا فسلطه الله عليهم :

﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ﴾

(الكهف الآية ٨٦)

هؤلاء على كفرهم

﴿ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

(الكهف الآية ٨٦)

بأن تصابرهم فى الدعوة : كما يفعل الدعاة المصابرون ، أو تخفف تعذيبهم ، وتكتفى بأسرهم ، وأسْرُهم هو الحيلولة بينهم وبين ما يفعلون من جرائم وسيئات ، ترشدهم إلى ما فيه خيرهم ، وتنهاهم عما فيه فساد مجتمعهم .

فقال ذو القرنين

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾

(الكهف الآية ٨٧)

نفسه باتباعها هواها ، واصرارها على كفرها

﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

(الكهف الآية ٨٧)

وأما من آمن بدعوتى ، وعمل عملاً صالحًا ، واتبع ما أمرنا به ، واجتنب ما نهيناه عنه ، فله جزاءً الحسنى ، فى الدنيا ، نعامله معاملة الصالحين وفى الآخرة يدخله ربه جنة النعيم .

وسنقول له من أمرنا يُسْرًا ، فنستحسن منه إحسانه ، ونكافئه عليه ، ولا نكلفه شططا ، ولا نُعْنِتُهُ ولا نرهقه ولا نشقّ عليه .

* * *

وأدار اسكندر وجهه نحو الشرق ، بجيوشه وخيله ورَجِله ، وسار وأبعد فى السير ، حتى خُيِّل إليه أنه وصل إلى أول العالم من شرقه ، كما كان وصل إلى آخره من غربه ووقف على حافة المحيط الأعظم . وماذا بعد الماء ؟

لقد رأى الشمس تشرق من الماء .فوقف يتأمل فى صنع الله ، الذى أماتها فى غروبها ثم أحياها فى شروقها ، فأين كانت لما غربت ، ومن أين برزت لما أشرقت ؟

ويا ترى كيف باتت ، أسكَنَتْ عن حركتها وكفّتْ عن دورانها ، أم كانت تُطِل على أقوام آخرين ، فجعلت ليلنا نهارهم ، وكان نهارنا ليلهم ؟سبحانك ربى .

أين أنا بعَدَدِى وعُدَّتى ، وسيفى ولأمَتى : ما نَحن إلا هَوَام وذَرَّاتٌ تهيم فى ملكوتك وما نحن إلا ضعاف عجزة على شاطئ جبروتك .

وأتمّ الإسكندر صلاته وتسبيحه . ثم التفت فرأى قوما هائمين فى الفلوات لا زرع ، ولا ضرع ، ولا سقف ولا ظل ، الريح بِعصْفها ، والشمس بوهجها ، قد دبغت جلودهم ، وسوَّدَت وجوههم ، وقست عليهم طبيعتهم ، فقست قلوبهم ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وصعبت طباعهم . فدعاهم الإسكندر إلى ربهم ، فلم يستجيبوا لدعوته ، فسلطه الله كذلك عليهم ، إما أن يعذب ،وإما أن يتخذ فيهم حُسنا .

والله قد وكل إليه أمرَ هؤلاء الناس ، لأن الله يعلم ما انطوَى عليه صدر الإسكندر من العدل فى الناس ، وحب الخير ، وهداية الضالين ، وإصلاح مجتمعهم ، والسعى فى إسعادهم .

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

(الكهف الآية ٩١)

* * *

وعاد الإسكندر الطوّاف ، فواصل زحفه بجيوشه متجهًا نحو الشمال ، وسار وأبعد فى السير حتى بلغ بين السدّين ، بين جبلين عاليين . فى أقصى الشمال من المعمور ،فوجد هناك ، فى الوادى المحصور بين الجبلين ناسًا ولا كالناس ، كأنهم ليسوا من بنى الإنسان ، وإنما هم أشباه الحيوان ، ولا يكادون يفقهون قولاً . ولا يفهمون إشارة ولا رمزًا .

يأكلون النيئ ، ويتغذّون بحشائش الأرض ، وينهشون العظم ، ويأكلون لحوم البشر ، فهو أناسيٌّ الغابات ، وهم أدنأ السلالات ، وأحط المجموعات .

* * *

وعجب ذو القرنين ، ووقف ساهمًا يفكر فى شأن مجموعات وخلائق من بنى آدم ، تعيش هائمة سائمة كما تعيش العجماوات ، ولا تدرى حلوًا من مر ، ولا حلالاً من حرام ، ولا سعادةً من شقاء ، ولا نعيمًا من جحيم .

* * *

وسرح الإسكندر يناجى نفسه ، ويتجه إلى ربه ، أتحاسب هؤلاء المخلوقات يا ربى ؟ أو تأخذهم بما منحتهم من عقول ولم يستنيروا بها ، أم إن رحمتك يا ربى تُعفى هؤلاء ؟ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ؟

وسأل عنهم جيرانهم ، فقالوا :

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾

(الكهف الآية ٩٤)

يكفينا شرهم ، ويعيشون من خلفه وحدهم .

* * *

قال :

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾

(الكهف الآية ٩٥)

وأمدونى بالعمَّال والفَعَلة ، وبأدوات البناء ، وأنا بجيشى ، ومَنْ معى ، من أهل الخبرة والصناعة

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

(الكهف الآية ٩٥)

وسدًّا

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾

(الكهف الآية ٩٥)

وقطَعَ المعادن واصْهرُوها ، واجعلوها ذَوبًا ، وابنوا معى .

حتى إذا ارتفع البناء إلى أعلى سفح الجبلين ، قال :

﴿ قَالَ انفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾

(الكهف الآية ٩٦)

من هذا النحاس المصهور ، وصبُّوه عليه ، واتركوه يبرد ويجمد . وكان ذلك سدًّا من فولاذ ، أملس لا يستطيع أن يتسلَّقه إنسان ، ولا أن تخرقه أو تنقبه قوة .

فلما اطمأن عليه ، وأمِنَ غوائل هؤلاء الهَمَج ، يأجوج ومأجوج ، قال :

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾

(الكهف الآية ٩٨)

إذ مكننى أن أفْصِلَ بين الصَّالح والطَّالح ، والطَّيب والخبيث ، وبين الحق والباطل .

وستأمنون شرهم ، حتى يجئ وَعْدُ ربى يومَ القيامة ، فسيجعله ربى دكًّا ، تُدكْدِكُه نفخةُ الصُّور ، كما تُدكْدك الجبال ،فتجعلها هباءً مُنْبَثًّا

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا ﴾ (الكهف الآية ٩٨)

يأجوجَ ومأجوجَ ،

﴿ بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾

(الكهف الآية ٩٩)

والصور (البُورى) فى الجيش ، يعلن الانتباه ويوقظ النيام ، والمراد به إعلان أمر الله .

* * *

وهكذا كان إسكندر ذو القرنين ، الرجلُ الطواف حول العالم .

وهكذا كان دليلاً جديدًا على صحة عقيدة البعث ؟

أفلا نعتقد ؟

* * *